ظهور الاسلام

للمستشرق الإنجليزى (ستيفن رانسيمان)

عرضه الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

(٣)

عوامل إسلامية مهدت للفتح :

نستطيع أن نقول إن السهولة التى لاقاها المسلمون فى استيلائهم على هذه المناطق ترجع إلى : الضعف الذى أنتاب الأمبراطوريتين الرومانية والفارسية وإلى عدالة المسلمين فى حكمهم وأكبر دليل على ذلك أن البلاد التى فتحوها لم يحاول أهلها أن يزحزحوهم عنها ، وما ذلك إلا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم .

فعند ما سمع المصريون عما يفعله المسلمون فى بلاد الشام ، أبدوا كامل استعدادهم لقبول ما يجرى هناك وتمنوا أن يعجل المسلمون بمهاجمة مصر ليخلصوهم من الظلم الذى يرزحون تحت ثقله .

وكان أول شىء أحس به أهل البلاد التى فتحها المسلمون ، هو تخفيف الضرائب عن كاهلهم وتنظيم ما يجمع منها ، كما شعر الذين فرضت عليهم الجزية لأنهم لم يدخلوا الإسلام ، بأنهم أحسن حالا من ذى قبل ، إذ كانت حكومات الأقاليم تقع تحت مراقبة الخليفة الذى لايخشى فى الله لومة لائم ، كما أنهم رأوا أن ما يجمع منهم من أموال إنما يصرف فيما يعود عليهم بالنفع والفائدة وخاصة عندما أصبحت دمشق مركز الخلافة .

ومما حبب الفاتحين المسلمين إلى قلوب أهل هذه البلاد ، التسامح الدينى ومحو الفوارق بين الطبقات ، والقضاء على الامتيازات ، فقد كان الأمبراطور الرومانى يريد من المسيحيين جميعا الدخول فى غمار كنيسته وإلا أعتبروا خارجين على طاعته ، ولكن المسلمين لم يحاولوا أن يجبروا أحدا على الدخول فى دينهم ، كما لم يميزوا كنيسة على أخرى .

ولم يفارق الدنيا صاحب هذا النور صلوات الله عليه (فى أول السنة الحاديه عشرة من الهجرة) إلا بعد أن كان قد فتح لنوره طريقا إلى خارج جزيرة العرب، ليبدد ما حولها من الظلمات، وليكفف بأس القوى الشريرة التى تآمرت عليه فى العتيقتين: دولتى الفرس والروم. ذلك أنه فى السنة التاسعة من الهجرة قاد بنفسه جيش المسلمين إلى (تبوك) مسارعة إلى صد الحملة التى كان الروم قد تأهبوا لها فى الشام، فكانت الهزيمة الأدبية التى لحقت بجيش الروم يومئذ، حيث لم يجرؤ أن أن يتقدم لملاقاة جيش المسلمين هنالك، كانت هذه الهزيمة الأدبية إرهاصاً قريباً لهزيمة الدولتين عسكريا وسقوطهما نهائياً، فى عهد خلفائه الراشدين . . .

ثم تتابعت هزيمة الظلام، وتدفق نور الإسلام على الأرض شرقا وغربا، فكان ما فتحه المسلمون فى قرن واحد (٦٣٢ — ٧٣٢) أعظم وأضخم مما فتحته الدولة الرومانية فى سبعة قرون كاملة.

غمرت الموجة الأولى من الفتح الإسلامى بلاد العجم والعراق والشام، ثم مصر وتونس، ثم الجزائر ومراكش وصقلية وأسبانيا، ثم تجاوزت جيوش المسلمين جبال البرانس وأوغلت فى فرنسا حتى اقتربت من باريس... ولو شاء ربك لأسلمت أوربا كلها، بل لو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً، ولكن قضت حكمته العليا ألا يزال الناس مختلفين، «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» . . . وهكذا توقفت الفتوح فى هذا الجانب من العالم منذ سنة ٧٣٢ م وعادت الجيوش من فرنسا لتستقر فى أسبانيا، وليؤسس المسلمون فيها مملكة عظيمة ظل حكمهم فيها قائماً ثمانية قرون، لم يشهد التاريخ فترة مثلها حضارة وازدهاراً، على أنهم إن كانوا اليوم قد فارقوها ملكا وحكماً، فإنهم لم يفارقوها أثراً ورسما.

ولم تكد موجة الفتح تنحسر هذا الانحسار اليسير فى الجانب الغربى حتى بدأت موجة أقوى منها فى الجانب الشرقى، امتد بها الفتح الإسلامى مشرقا إلى بلوخستان والهند والصين، بل تجاوز القارة إلى الجزائر الأندونسية، كما أنه انعطف مغرباً فدخل أوروبا من جنوبها الشرقى متجهاً نحو الغرب والشمال الغربى إلى النمسا وإلى قرب بحر البلطيق.

* * *

هذه الفتوح كلها يعترف المنصفون من المؤرخين الغربيين بأن الأساس الأول والأعظم فيها لم يكن هو الحرب، فهم يقولون بصريح العبارة: إن المعارك الإسلامية

الكبيرة كانت نادرة جداً ، وإن أكثر ما تم من الفتح الإسلامى إنما كانت بفضل التجارة ، والدعوة السلمية ، والإقناع الحكيم ، والقدوة الحسنة .

وفى الحق لو كان دخول هذه الأمم فى حظيرة الإسلام تحت سلطان السيف لخرجوا منها منذ دخلت السيوف فى أغمادها ، ومنذ غفل المسلمون عن أسلحتهم وأمتعتهم ، فانعكست آية القوة المادية ، وأصبحت فى يد غيرهم ، ولكن الإسلام ، كما قال هرقل (عاهل الروم فى عصر النبوة) : متى خالطت بشاشته القلوب لايرتد أحد عنه ساخطاً له . أو كما قال بعض المؤرخين فى العصور الحديثة : إنه لاتعرف حادثة واحدة ارتد فيها مسلم عن دينه ردة حقيقية ، بعد أن دخل فى الإسلام دخولا حقيقياً ، بينما حوادث الخروج من الأديان الأخرى إلى الاسلام أكثر من أن تحصى ...

نقول : إن فى سرعة انتشار الاسلام هكذا فى عالم يبلغ خمس الكتلة البشرية على الأقل ، وبين أمم مختلفة فى ألسنتها وألوانها ونزعاتها وطبيعة أرضها وطبيعة جوها وأسلوب حياتها ... وإن فى ثباته واستقراره هذا على الرغم من كل عوامل التدمير التى سلطت ولا تزال تسلط عليه فى داخل أرضه وفى خارجها ... وإن فى قابليته لزيادة الانتشار على الدوام كلما رفعت الحواجز الصناعية من طريقه ...وإن فى سرعة تقبل النفوس له كلما عرض عليها دون صراع ولا خداع ... إن فى ذلك كله لتفنيذا بليغاً لزعم من زعم أن الاسلام خلق للصحراء ، وللامم التى تجاوز طور الطفولة البشرية إن فى ذلك كله لآية بينة على مبلغ ما فى طبيعة الاسلام من اشباع لحاجات العقول والقلوب ، وتوفية لمطالب الأفراد والجماعات ، ومجاوبة للفطرة الانسانية العميقة التى لاتختلف باختلاف الأقطار والعصور ، ولا باختلاف المظاهر وأساليب الحياة ، بل إن فى ذلك كله لآية على أن فطر الانسان هو الذى شرع له هذا الدين ، وفصله على مقياس طبيعته ، وأن ذلك كان هو السر الأول فى بقائه وخلوده ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

* * *

ولقد اتسم الاسلام فى غضون تاريخه بسمتين أخريين ، وكان لهما أكبر العون على استمراره واستقراره ، ظاهرتان من أهم مقومات الحضة الحقيقية ، لم يسع المحققين من علماء أوروبا إلا الاعتراف بهما ، والتنويه بشأنهما : ظاهرة داخلية بين معتنقيه ، وظاهرة خارجية ، تجاه المخالفين له .

فأما الظاهرة التى أسبغها على أتباعه فيما بينهم : فتلك هى ظاهرة الأخوة الروحية التى جعل منها ظاهرة اجتماعية ، تسمو على كل الفوارق العنصرية ، وتمحوا كل الحواجز الاقليمية ، وإن اختلفت إدارتها ورياستها العليا . فلقد أتى على الاسلام حين من الدهر ، فى مدى القرنين الرابع والخامس من الهجرة (العاشر والحادى عشر الميلادى) كان يتولى الخلافة فيها ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : خليفة عباسى فى العراق ، وخليفة أموى فى الأندلس ، وخليفة فاطمى فى مصر ، ومع ذلك كان المسلم الذى يتنقل فى سفره من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فى امتداد يقطعه الراكب فى عشرة أشهر على الأقل ، لايجد حيثما حل إلا إخوة فى عقيدته ، إخوة فى عبادته ، إخوة فى شريعته ، نظراء فى أخلاقه وعوائده ، أو كما يقول المؤرخ الألمانى متز Mez فى كتابه (نهضة الاسلام Die Renaissancê des Islams) كان المسلم يشعر أنه حيثما حل فهو فى قلب وطنه .

وأما الظاهرة الخارجية : فهى ظاهرة التسامح بإزاء الأديان الأخرى ، لا بإزاء اليهودية والنصرانية فحسب ، بل بإزاء المجوسية ، التى عاملها الإسلام معاملة الأديان السماوية . . . ولم يقتصر الأمر فى هذا التسامح على أنه ترك أصحاب هذه الديانات المختلفة يتمتعون بحرية عقائدهم وعباداتهم ولغاتهم : بل إن الخلفاء خولوا لكل رئيس دينى أن يقضى فى شئون طائفته الخاصة التى لا تصطدم ومصالح الدولة ، أضف إلى هذا أن عدداً كبيراً منهم كان أداة فعالة فى جهاز موظفى الدولة ؛ حتى إن منصب وزارة الحربية أسند إلى المسيحيين مرتين ، أثناء القرن الثالث الهجرى .

ولقد حاول المؤرخ الألمانى كريمر Kremer فى كتابه (حضارة الشرق فى عهد الخلفاء : Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen أن يحلل طبيعة هذا التسامح الإسلامى ، ويتعرف أسبابه ، فنفى نفيا قاطعا أن تكون له بواعث سياسية ، وأن يكون هدفه فى نظر أولى الأمر المسلمين هو تسكين قلوب الرعايا غير المسلمين حتى لا يثوروا على الحكم . . . قال كريمر : كلا ؛ فإن هذه الفضيلة لم تكن خاصة بالخلفاء والرؤساء وحدهم ، بل كانت سارية فى الشعب عامة ؛ ثم إنها لم تقتصر على عصر المسلمين القدامى فحسب ، بل شملت سائر العصور . . . وينتهى المؤرخ من تحليله إلى هذه النتيجة : وهى أن المسلم يفصل فصلا تاما بين العقيدة ، التى يحترم حريتها عند الآخرين ، وبين المصالح الدنيوية التى تعتمد الكفاية والأمانة ، والتى لا تميز بين دين ودين فى سبيل التعاون .

ولن يفوتنا أن نعد من بين هؤلاء المؤرخين المنصفين الأستاذ الفرنسى (جوتيه Gautier) فقد خصص فى كتابه (أخلاق المسلمين وعوائدهم . Mœurs et Coustumes des Musulmans) فقرات طويلة قارن فيها مقارنة رائعة بين هذا التسامح الدينى عند المسلمين بخاصة والشرقيين بعامة ، وبين ما عند المسيحيين الغربيين من عصبية عنيفة توارثوها خلفا عن سلف . وعلى سبيل التمثيل لهذه الحمية الجاهلية يشير المؤلف إلى ما حدث فى جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دى مونفور) الذى توجه بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسيين ، ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة (لانج دوك) لاستئصال الديانة المجوسية منها ، فأغرقوا الإقليم كله فى أنهار من الدم والنار ، حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس ... ويستطرد المؤلف فيقول : إن هذا العنف لم يؤد إلى نتيجة حاسمة من وجهة نظر الكنيسة ؛ فقد نبتت هذه الفرقة المارقة مرة أخرى فى (بوهيميا) فحوربت وهزمت . ثم نبتت مرة ثالثة فى شمال المانيا باسم (الإصلاح الدينى : La Réformet) .

وقد حوربت فى هذه المرة أيضا بأساليب أشد عنفا ، ودامت المعارك من أجلها ثلاثين عاما . ولكنها لم تفلح فى إخضاعها ... فلما استنفدت الحروب جهود الطرفين وأرادوا أن تضع الحرب أوزارها لم تطوع لهم أنفسهم قبول فكرة التسامح الدينى فيما بينهم ، بل فضلوا أن تقسم المسيحية قسمين متناكرين ، ليس بينهما تعايش سلمى فى دولة واحدة ؛ بل لكل دولة دينها ، بحيث لا يعيش فى كل أمة إلا مذهب واحد . . . يقول المؤلف : فأين هذا مما نشاهده فى داخل بلاد الإسلام قديما وحديثا ، حيث يحتضن الإسلام دائما بين جناحيه من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى طوائف من غير المسلمين ، يهوداً ونصارى ومجوسا ، وطوائف من المسلمين المبتدعين ، شيعة وخوارج وإباضية ... ولم يفكر العرب ولا المسلمون يوما ما ، حتى فى أشد أوقات حميتهم الدينية ، أن يطفئوا بالدم دينا منافسا لدينهم ، بل لم يفكر الخليفة يوما ما فى أن يضطهد مسيحيا يعقوبيا أو مجوسيا مانويا . . . إنه مهما تكن الأسباب والبواعث على هذا التسامح الدينى عند المسلمين ، فإنها فضيلة تستحق كل إعجاب وتقدير . . . وإنه لمن الخطأ فى القياس أن نقارن بين هذه الفضيلة عندهم وبين ما نسميه نحن أحيانا بالتسامح الدينى عندنا ، فإن هذا التسامح المزعوم ليس له أدنى قيمة خلقية ، بل ليس له وجود حقيقى ، لأنه يقوم على أساس التحلل الدينى وعدم المبالاة بشؤون العقيده : فلكى نقبل وجود ديانة أخرى فى بلادنا يجب أن

تكون ديانتنا قد ماتت من قبل فى نفوسنا. أما المسلم فإنه يتسامح مع اعتزازه بدينه، واستمساكه التام بعقيدته.

وكأننا بالأستاذ (جوتييه) حين أشاد بفضيلة التسامح الدينى عند المسلمين، وجعلها قاعدة عامة عندهم، توقع ما يجول بذهن القارىء من اعتراض على هذه القاعدة العامة بالأمثلة المشاهدة فى المستعمرات، حيث إن المسلمين فى الجزائر وغيرها يمقتون المسيحيين جميعاً، فرنسيين كانوا أم انجليز أم هولنديين أم غيرهم. فتصدى لدفع هذا الاعتراض قائلا: إنهم لا يمقتون فينا مسيحيتنا، وإنما يمقتون أوربيتنا، فإن أوربا منذ قرن أو يزيد أصبحت خطراً يهدد سلام الكرة الأرضية، فالأوربى عندهم رمز للتدخل الذى يجرح كبرياءهم، ويحطم استقلالهم، ويفسد أسلوب معيشتهم. أما عقائدنا الدينية وآراؤنا الفلسفية، المخالفة لعقائدهم وآرائهم، فإن أمرها كان يهون عليهم لو بقيت محصورة فى دائرة الاختلاف النظرى... ولقد صدق!.

هذان هما العنصران الأساسيان فى بناء الحضارة عند كل أمة رشيدة تطمح إلى البقاء والخلود: عنصر الوحدة الروحية والوطن المشترك بين أبنائها على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم، وعنصر التسامح والتعايش السلمى مع جيرانهم المخالفين لهم فى عقائدهم.

غير أن هذين العنصرين لابد لهما من عنصر ثالث يمازجهما ويكملهما، ويجبر ما قد يعتريهما من نقص. ذلك أن رحمة الأخوة كثيراً ما ينفلت زمامها، فتصل إلى حد التراخى والتهاون والإغضاء عن الإثم والفوضى والفساد الداخلى، كما أن نزعة التسامح وحب السلام العالمى كثيراً ما يختل ميزانها، فتنحدر إلى مستوى الضعف والاستسلام أمام العدو الخارجى...

لهذا وذاك جاء الإسلام منظماً لكلتى النزعتين، محتفظاً بما فيهما من خير ونفع، نابذاً ما فيهما من شذوذ وانحراف...

يتلخص هذا التنظيم الإسلامى فى أنه جهز أتباعه بجهازين: داخلى وخارجى: وجعل كل واحد منهما يتألف من عنصرين: أدبى ومادى.

فأما فى الداخل فقد جهزهم معنويا بجهاز الدعوة إلى الخير، والتناهى عن المنكر، والتناصح والتواصى بالحق، دعوة وتناصحاً لا يمتاز فيهما كبير عن صغير ولا يقل فيهما مأمور عن أمير... ثم جهزهم ماديا بجهاز العقوبات والتأديبات التى يوجب توقيعها على كل من لم تنفعه الموعظة الحسنة، بالغاً ما بلغ قدره وخطره، دون أن تأخذنا به رأفة فى دين الله.